كلمة الاعلامي والباحث الاستاذ غسان الشامي

ملتقى القيم الانسانية في الاديان السماوية

في حال أخذنا بالتعريف السائد بأن القيم هي أحكام عقلية تضبط سلوكنا حيال الرغبات ، ويكتسبها الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه ،حتى أنها تصبح بوصلة سلوكه الإجتماعي، ومدماك العمارة الخاصة به، ترافقه في تصرفاته ومساره الحياتي ، وتتنامى مع ما يكتسبه من ثقافة وحكمة وفلسفة يتقبلها المتواطنون معه الذين ينهلون من هذه القيم..فإنه يتوجب علينا اعتبار القيم الدينية جزءاً من هذه العمارة ، بمعنى أن القيم الدينية التي ترتكز حكما على ما يرد في النص الديني هي مفاهيم ومبادىء يطبقها المتدينون والذين ينضوون تحت يافطة الأحكام الدينية ساعين لإرضاء الخالق عبر تنفيذ ما جاء في الرسالات الدينية.

منذ ألفي عام ونيّف انتشرت في بلادنا ثقافتان دينيتان المسيحية والإسلام وباتتا الحاضنة القيمية للسلوكيات البشرية، يعود إليها الناس كلما استشعروا خللاً أو أرادوا تصويب مسار اجتماعي ، لكن جراء تدني مستوى العلم والمعرفة لأكثر من ألف عام في منطقتنا ، أشكل على السائرين في ركاب القيم الدينية وعلى سراطها وهداها بين هذه القيم المستلة من النص الديني وبين التأثر برجال الدين الصالحين منهم أو الطالحين الذين يقرأون النص ويفسرونه رغائبياً كرمى لجاه أو سلطان، ما أدى إلى خلخلة في سلّم القيم وفي طريقة تعاطي المجموعات البشرية المتدينة مع بعضها البعض، وإحالة الخلافات ، مهما كان نوعها، إلى الجذر الديني، ما حرف جماعات دينية عن مسار النص وجعل الاحتراب طريقاً بدل التلاقي والاقتراب.

صحيح أن القيم نسبية بين شعوب وأخرى، فالحق في مجتمع ما هو غيره لدى مجتمع آخر ، لكن منظومة القيم الكبرى في الحق والخير والجمال متشابهة ، وتحديداً بين المسيحية والإسلام ، وترتكز على المحبة والتسامح وفعل الخير، لكن هذه القيم، وبسبب التعصب والجهل تحوّلت إلى مثارات خلافية عند بعض رجال الدين الذين اتكأوا على المختلف بين الديانات، وحتى بين المذاهب في الديانة الواحدة، من دون التأسيس على المشترك، وهو كثير، ما دفع لانغلاق بعض المجتمعات وصولاً لاندلاع ثقافة الكراهية والاحتراب والقتل.

وما أن باتت العولمة ظاهرة طاغية في هذا العالم حتى وجدت الجماعات المتأثرة بالقيم الدينية نفسها في حالة اغتراب، لأن العولمة هي فكرة تحولت إلى ظاهرة تعني التكامل الدولي في المال والتجارة والاقتصاد وشبك هذه القطاعات بين المحلي والعالمي سلعياً وخدماتياً ورؤوس أموال ، بحيث يتحوّل المحلي إلى عالمي والعكس صحيح في سيطرة واضحة للشركات العابرة للقوميات ، وفي طغيان الثقافة والقيم الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالدول الكبرى الممسكة بالاقتصاد الريعي والمعرفي والرأسمالي على الشعوب الفقيرة وقيمها ومآلات ما تسعى له نخبها من تحرر وإثبات حضور حقوقي وثقافي وقيمي واقتصادي على خارطة الكون.

ما من شك أن العولمة استفادت من ثورة الاتصالات وباتت الأقمار الصناعية والنقل المباشر وسهولة تداول المعلومة سلطة بحد ذاتها، كما أن هذه استفادت من العولمة في الوصول إلى أوسع الشرائح الاجتماعية، وعمّت ثقافة التلفزة التي باتت

لدى شعوب تعدّ نفسها متحضرة بديلاً للثقافات السائدة وقيمها، وبات محركوا العالم التلفزيوني يحركون العالم بقيم جديدة استهلاكية خدمة لمصالحهم ومصالح دولهم وصولا إلى ابتداع ثورات ملوّنة هنا وهناك، بعيداً عن الوازع الأخلاقي المتكئ على القيمة الفلسفية- الدينية- الاجتماعية ، وأقصد الأخلاق، ما أدى إلى شقلبة في سلّم القيم ،وإلى تعميم السطحية والتسليع وانحدار الثقافة، ومن ينظر إلى العالم اليوم من مجهر معرفي يلحظ تدني الثقافة وركنها في زاوية ميتة، ويجد أن الشعر والغناء والموسيقى وحتى الرسم قد انكفأوا ، وأن الكلمة الطيبة والجملة الإبداعية والنغمة التي تسحر القلوب غابت عن المشهد أمام السخافات التي تروّج لها التلفزيونات المملوكة من قبل شركات كبرى أو أفراد لهم ارتباطات خاصة وأجندات معينة.

في عالمنا العربي انقضت علينا العولمة فهدمت البناء المتصدع أصلاً وزلزلت الحجر، ولأننا توقفنا عن الإنتاج منذ ألف عام أخذنا الإعلام من أطرافه السفلية، وبدل أن نستغله لتعميم المعرفة والثقافة والانتماء الواحد والمواطنية الحقة، دخلنا في لعبة أرادها لنا الأعداء واستنقعنا بها، أما الذين حاولوا استغلال العولمة في شقها المرئي من الجهات المتسترة بالدين فقد استعملوا رجال الدين كطعم للفرقة والتنابذ والدليل وجود حوالي 140 محطة تلفزيونية إسلامية و9 محطات مسيحية تكرّ،بأغلبيتها الساحقة، على عقول المشاهدين العرب بأسلحة قروسطية ناشرة التلفيق والتجهيل، من دون أن تغوص في تقديم المداميك التي تستند إليها الثقافة الدينية الإسلامية أو المسيحية، بحيث تحولت بعض هذا القنوات إلى وسائل لتعميم القتل والذبح.

ذات مرّة رفضت استقبال أحد رجال الدين في برنامجي بعد حوار معه تحت الهواء لأنني توجّست منه لساناً تفريقياً ، ثم وجدته في برنامج آخر، وعندما سألت من استضافه قال لي، لماذا تحمل السلّم بالعرض "إن التلفزيون مجرد تعبئة هواء"..نعم هكذا يرى الكثيرون دور الإعلام، وهنا الطامة الكبرى حيث يُملأ الهواء بالهراء.

نحن أمام واقع موجع، لأنه في الثقافة الدينية يجب أن نستحضر ما يجمع ونبني عليه وأن نحيي إرث المحبة والتسامح على قاعدة " كلمة سواء" وإذا كان النبي العربي قال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فما بال الكثيرين ممن يقولون إنهم اهتدوا بهديه يزورّون عن مكارم الأخلاق ، وما بال الكثيرين ممن آمنوا مع المسيح بأن المحبة هي أم الفضائل يعممون ثقافة الكراهية؟

لفتني منذ أمد بعيد أن الثقافة في العربية تجيء من تدبيب وتسوية الرمح، أي من توسل آلة حرب، وأنها في لغات أخرى تجيء من الزراعة، مع أن بلادنا هي مهد الثورة الزراعية الأولى في التاريخ والمقر الأول لتدجين الحبوب قبل أكثر من تسعة آلاف عام..لماذا لا نزرع ثقافة المحبة والاحترام والأخلاق في إعلاماتنا؟..هنا حطّنا الجمّال.

المقاومة الإسلامية في لبنان
التعبئة التربوية